جامعة الملك سعود
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة الآداب
ردمد (ورقي):٣٦١٢-١٠١٨
ردمد (النشر الإلكتروني): ٨٣٣٩-١٦٥٨

King Saud University
College of Humanities and Social Sciences
Journal of Arts
ISSN (Paper):1018-3612
ISSN (Electronic):1658-8339

مجلة الآداب، مج (٣٧)، ع (٢)، ص ص ٤٩-٦٧، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠٢٤م/ ١٤٤٦هـ)
Journal of Arts, Vol. 37 (2), pp 49-67, © King Saud University, Riyadh (2024 /1446H.)

وظيفة اللغة التبليغيَّة في الرسالة المصريَّة لأبي الصلت الأندلسي: دراسة في المعاني والجماليَّات

عمر بن فارس الكفاوين

أستاذ الأدب الأندلسي، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم التربوية، جامعة فيلادلفيا، الأردن.

(قدم للنشر في ١٤/ ٤/ ١٤٤٦هـ، وقبل للنشر في ١٨/ ٦/ ١٤٤٦هـ)

https:/doi.org/10.33948/ARTS-KSU-37-2-3

الكلمات المفتاحية: أبو الصلت الأندلسي، الرسالة المصريَّة، الوظيفة التبليغيَّة.

ملخص البحث: هدفت هذه الدراسةُ إلى إظهار وظيفة اللغة التبليغيَّة في الرسالة المصريَّة لأبي الصلت الأندلسي، واستقصاء أبرز ما قدمته هذه اللغة من أخبار ومعلومات، ودراسة جماليّاتها التي ساعدت في تمثيل المعاني وتعميقها، واعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي؛ لدوره في رصد أبرز الأخبار الواردة في الرسالة وتحليل أثرها في بنية النصِّ الكُليّة، مما يؤكّد أن الوظيفة التبليغيَّة من أهم وظائف لغة الرسالة؛ لأن النصَّ يقوم على تقديم مجموعة من الأخبار والمعارف عن مصر وأهلها في فترة ما، فضلًا عن المنهج الفني الذي ساعد في إبراز أهم جماليّات لغة الرسالة، ودورها في تمثيل المعاني. وخلصت إلى أن لغة الرسالة أدت وظيفة تبليغيّة إخبارية عن مصر ومَنْ فيها من أجناس بشرية، وقدمت للمتلقي معلومات عن تلك البلاد، ربما لم يكن يعرفها من قبلُ، أو أنه يعرف بعضها فتعززت لديه، وأن نصَّ الرسالة بُني على مجموعة من الجماليَّات كالوصف والتناص وفنون البديع، أسهمت في تمثيل وظيفة اللغة التبليغيَّة، وأكدتها وأكسبت النصَّ قيمًا فنية تجذب المتلقي نحوه وتثير انتباهه.

The Communicative Function of Language in Abu al-Salt al-Andalusi's "Egyptian Epistle": A Study in Meaning and Aesthetics

Omar Faris Al-Kafawin

Professor of Andalusian Literature, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Educational Sciences, Philadelphia University, Jordan.

(Received: 14/ 4/1446 H, Accepted for publication 18/ 6/1446 H)

https:/doi.org/10.33948/ARTS-KSU-37-2-3

Keywords: Abu al-Salt al-Andalusi, Egyptian Epistle, Communicative Function.

Abstract. This study aimed to highlight the communicative function of language in The Egyptian Epistle by Abu al-Salt al-Andalusi, to explore the key pieces of news and information conveyed through the text, and to examine its aesthetic elements that contributed to the representation and deepening of meaning. The study employed the descriptive-analytical method for its role in identifying the most prominent news items within the epistle and analyzing their impact on the overall structure of the text. This confirms that the communicative function is one of the most important functions of the epistle's language, as the text is built upon the delivery of knowledge and reports about Egypt and its people during a specific period. The study also adopted an artistic approach to uncover the most significant aesthetic features in the epistle's language and their role in representing meaning. The findings concluded that the language of the epistle performed an informative and communicative role about Egypt and its diverse population, offering the recipient knowledge they may not have known or reinforcing what they already did. The text is structured with various aesthetic elements—such as description, intertextuality, and rhetorical arts—that supported and emphasized the communicative function of language, giving the epistle artistic value that captures the reader's attention and engagement.

مقدمة

يقومُ كلُّ نصٍّ مكتوب على اللغة، سواء أكان أدبيًّا أم علميًّا، شعرًا كان أم نثرًا، ووظيفتها الأساسية هي التبليغ أو الإخبار والإعلام عن معلومات ومعارف، جديدة كانت أم معروفة من قبلُ، وعلى الرغم من أن لها وظائف عدّة، فإنها تنطلق جميعها من التبليغ؛ فالوظيفة المرجعيَّة متعلقة بالتبليغ، بل إن المرجع ومصدره فيها متضمن تلقائيًّا فيما تبلغ عنه اللغة، وكذلك بقية الوظائف كالتعبيرية والانتباهية وغيرهما، فإنها ناتجة في الأصل عن لغة التبليغ التي تعبر عن أمور وأشياء، وتثير الانتباه إليها.

وسعت هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على وظيفة اللغة التبليغيَّة في الرسالة المصريَّة لأبي الصلت الأندلسي، من خلال دراستها وإظهار أبرز ما اشتملت عليه من معلومات وجماليات، منطلقة من أهداف أهمها: رصد أبرز الأخبار والمعلومات التي بلغت لغة الرسالة عنها، وبسطتها أمام المتلقي؛ ليتعرف إليها، وتتعزز لديه، إنْ كان على علم بها من قبلُ، فيقتنع بها أو لا يقتنع، فضلًا عن إبراز أهم الجماليَّات التي انطوت عليها لغة الرسالة؛ لتكون وسائل مساعدة لعملية التبليغ. وتنبع أهمية الدراسة من كونها تدرس رسالة قديمة دراسة تطبيقية على أهم وظيفة للغة (التبليغ)، وتربط بين ما اشتملت عليه من معانٍ وجماليات متعالقة مع بعضها، لتمثيل الأخبار والمعارف.

واخترتُ موضوع الدراسة؛ لأنني لم أعثر على دراسات عنه، ولا سيما وظيفة التبليغ في لغة الرسالة، لأن هذه الوظيفة كانت أساس النصّ ولغته، فرأيت أنه لا بدّ من دراستها وتفنيدها، وإظهار دورها في بناء النص، وبحثت عن دراسات سابقة فلم أجد سوى دراسة بعنوان "المشاهدات العيانية لأمية بن أبي الصلت الأندلسي عن مصر في الرسالة المصريَّة" لهديل البارودي وعلياء المشهداني، مجلة ضياء للبحوث والدراسات، بيروت، عدد خاص بمؤتمر بيروت العلمي الدولي الثاني، ٢٠٢٤، الصفحات (٢٠- ٣٣). وقد عرفت بأبي الصلت ورحلاته، وخاصة رحلته إلى مصر وما لقيه فيها، وتناولت منهجه في كتابة الرسالة، ومشاهداته، وملاحظاته وآراءه، وخلصت إلى أن الرسالة قدمت انطباعات رجل أندلسي عن مصر، وقدمت وثيقة يمكن للباحثين في تاريخ مصر الإفادة منها. ولم تأتِ الدراسة على وظيفة اللغة التبليغيَّة في الرسالة، ولم تتوسع في إظهار موضوعاتها، ولم تدرس جماليات لغتها، وهذا ما تميزت به دراستي الحالية هذه.

وانتظمت هذه الدراسة في مقدمة، وتمهيد عرّف بالرسالة وصاحبها، وبالوظيفة التبليغيَّة للغة، وتدرجت في مبحثين: الأول بعنوان (المعاني والأخبار المبلغ عنها في الرسالة)؛ وقد رصد أبرزها وجردها وفصلها، أما الآخر، فجاء بعنوان (جماليات اللغة التبليغيَّة في الرسالة)؛ وقد رصد أبرز هذه الجماليَّات كالوصف والتناص وفنون البديع، وأظهر دورها في بناء النص، وانتهت بخاتمة تضمنت أبرز نتائجها. واعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي، لدوره في استقصاء أهم الأخبار الواردة في الرسالة وتحليلها، إضافة إلى المنهج الفني الذي ساعد في إبراز جماليات اللغة، وإظهار دورها في بناء النص وتمثيل معانيه.

تمهيد

يمكن القول إن الرسالة المصريَّة لأبي الصلت -أمية بن عبدالعزيز الأندلسي (ت٥٢٨هـ/ ١١٣٣م)- تندرج تحت رسائل وصف البلدان؛ لأنها تصف البلاد المصريَّة ونيلها وآثارها وسكانها ورجالها وغير ذلك، ثم إنها تتداخل مع أدب الرحلات؛ لأنها تقوم على حديث صاحبها خلال رحلته في مصر، ووصف ما عاينه وشاهده أو سمعه، وعليه فإنها تمثل وجهًا من وجوه هذا الأدب.

رحل أبو الصلت من الأندلس إلى مصر سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م[١]؛ طلبًا للعيش الكريم والاستقرار، في الوقت الذي كانت فيه الأندلس تتنازعها دويلات الطوائف، وتتساقط المدن واحدة تلو الأخرى بيد الروم (الإسبان)، يقول: "واضطُررتُ إلى مفارقة الوطن، والخروج عن العطن، فتماسكت إشفاقًا من مفارقة أول أرض مسَّ جلدي ترابَها، وشُدّت علي التمائم بها، وجاءت أمور لا تطاق كِبار، فلما لم يمكن القرار، ولم يبقَ إلا الفِرار"[٢]، إضافة إلى السبب المتعلق بطلبه العيش الكريم، والبحث عن الرزق، يقول: "ليس لي غير مصر مقصد، ولا وراءها مذهب، ولا دونها للغنى مطلب"[٣]. وقد دخل مصر أيام الخليفة الفاطمي (المستنصر بالله)، وكان وزيره والقائم بدولته هو (الأفضل شاهنشاه)، وتقرب أبو الصلت من هذا الوزير، إلا أن الحظَّ لم يحالفه كثيرًا؛ إذ حيكت حوله المؤامرات، فأفسدت علاقته بالوزير الذي "سجنه في الإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر"[٤]، وبعد خروجه من السجن ضاق ذرعًا بمصر، فرحل إلى المغرب سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م، واتصل بأبي الطاهر يحيى بن تميم بن باديس أمير المهدية في تونس، ولقي عنده حظوة، وأصبح من علماء مجلسه وشعرائه[٥]، وبقي فيها حتى توفي سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م.

ويمكن القول: إن أبا الصلت كتب الرسالة مدفوعًا بعاملين رئيسين:

الأول- دافع ذاتي: يتمثل برغبته تدوين مشاهداته في مصر، وإظهار انطباعاته حولها؛ لكي تكون رسالته وثيقة مرجعية لكل من أراد أن يتعرف إلى مصر وجغرافيتها ومجتمعها في ذلك الزمن.

الثاني- دافع رسمي: يتمثل برغبته في إظهار براعته أمام أمير المهدية ابن باديس، من خلال كتابته نصًّا وصفيًّا للبلاد المصريَّة وأجناسها البشرية، فضلًا عن محاولة استعطافه - ربما- من خلال تصوير ما عاناه في مصر من ظلم واضطهاد.

وتأسيسًا على ما سبق، فقد كتب أبو الصلت رسالته بلغة محكمة، يستطيع من يقرأها أن يدرك أن أبرز وظيفة لها هي الوظيفة التبليغيَّة أو الإخبارية؛ لأنها تبلغه عن كثير من المعلومات عن مصر، قد يكون عارفًا لها فتتعزز لديه، أو لأنه لا يعرفها من قبلُ فيتعرف إليها، وعليه فإنه يكون قد عرف شيئًا لم يكن معلومًا لديه.

أما الوظيفة التبليغيَّة، فتعني "أن المتكلم يسعى إلى إبلاغ المخاطب معنى ما"[٦]، وتخبره لغته عن ذلك المعنى، لذا فإنها تُسمى أيضًا الإخبارية؛ لأن اللغة "تسمح بنقل المعلومات والمعرفة بين الأجيال ومختلف المجتمعات، إنها وسيلة لنقل

(١) ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تح. إحسان عباس، ٨ أجزاء، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٨)، ج١/ ص٢٤٣.

(٢) أمية بن عبد العزيز أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، تح. عبد السلام هارون، جزآن، الطبعة الثانية، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٣)، ج١، ص١١.

(٣) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٢.

(٤) ينظر: ياقوت الحموي، *معجم الأدباء*، تح. إحسان عباس، الطبعة الأولى، ٦ أجزاء، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣)، ج١، ص٧٤٠.

(٥) ينظر: محمد بن عبد الله بن الأبار القضاعي، *التكملة لكتاب الصلة*، تح. بشار معروف، الطبعة الأولى، ٤ أجزاء، (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١١)، ج١، ص٣٣٢-٣٣٣.

(٦) ينظر: فاطمة بركة، *النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون*، الطبعة الأولى، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣)، ص٤٠.

الثقافة والعلم"[٧]، وتكمن أهميتها في أنها تنقل المعلومات والمعارف من جيل إلى جيل، ومن مكان إلى آخر، وعبر الأزمنة والعصور.

وتعدّ وظيفة التبليغ من أهم وظائف اللغة؛ إذ "يستطيع الإنسان من خلالها إيصال المعلومات والأخبار لغيره، سواء في زمانه ومحيطه أو للأجيال اللاحقة، ويمكن أن تمتد هذه الوظيفة لتصبح وظيفة تأثيرية إقناعية"[٨]؛ إذ إن ما يتضمنه النصُّ اللغويُّ من أخبار معززة بالأدلة والحقائق، تؤثر في المتلقي وتقنعه بوجودها.

ومعلوم أن اللغة فعل لساني، ومن خلاله "يحدث المتكلم نشاطًا ذاتيًّا، ويقول بفعل مقصود؛ لإفادة الكلام حقيقة من الحقائق"[٩]، مما يؤدي إلى تحقيق التواصل بين المتكلم وغيره، وتقديمه الحقائق وبسطها يؤدي إلى إيصالها وتبلغيها للمتلقين والناس بوجه عام، وبالتالي فهمها وتبادلها وتناقلها عبر الأجيال والأزمان.

وطرح (دي سوسير) من ضمن ما طرح بخصوص التبليغ اللغوي أو التواصلي، فكرة العلاقة بين اللغة والمجتمع؛ إذ يمكن دراسة الوظيفة اللغوية في سياقها الاجتماعي، أي أن اللغة وسيلة للتواصل بين المجتمع وأفراده [١٠]، بمعنى أنهم من خلالها يستطيعون إدراك المعاني المقصودة. وعلى الرغم من أن بعض المختصين بعلم اللغة ركزوا على أن "البنى التركيبية والصرفية تعكس إلى حد بعيد الخصائص المرتبطة بوظيفة التواصل (التبليغ)"[١١]، إلا أنه من الممكن – أيضًا– أن يكون السياق الناتج عن تلك البُنى، وما يشتمل عليه من تآلفات وجماليات هو التبليغ بحد ذاته، وذلك من خلال رصد معانيه، وموضوعاته، وربطها بالواقع والمتلقي.

وتأسيسًا على ما سبق، فإن هذه الدراسة تبحث في وظيفة التبليغ من خلال الوحدات السياقيّة في الرسالة مجتمعة، وتظهر ما تضمنت هذه السياقات من معانٍ وجماليات، تتعالق معًا، لتوصل الأخبار والموضوعات التي تبلغ عنها الرسالة، لذا فإن الدراسة لم يكن هدفها الخوض في لسانيات النصّ ورموزه وتراكيبه للوصول إلى التبليغ، وإنما النظر في الرسالة كلها، ورصد ما بلغت عنه من أخبار.

إن الناظر في الرسالة المصريَّة لأبي الصلت يدرك أن التبليغ والإخبار كانا بارزين في لغتها، وأن كاتبها سعى إلى توجيه المخاطب إلى أفكار وحقائق معينة؛ ليعرفها وتثير انتباهه، وكان هدفه الإفادة ونقل المعرفة لغيره، من خلال لغة وصفية مسجوعة، يمتزج فيها الشعر والنثر، الأمر الذي يرسخ معانيها في الأذهان ويؤكدها ويثبتها.

المبحث الأول: المعاني والأخبار المُبَلَّغ عنها في الرسالة

ضمّن أبو الصلت رسالته كثيرًا من الأخبار والحقائق والمعاني عن مصر ومجتمعها، ونقلها من خلال معايناته ومشاهداته وسماعه، وصوّر انطباعاته الشخصية حولها، وأبدى ملحوظات دقيقة عنها، وتنوعت تلك المعارف بين الجغرافيا، والمجتمع، والسكان، والمذاهب، والأدباء وغير ذلك.

(٧) ينظر: عبد الهادي الشهري، *استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية*، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤)، ص١٨.

(٨) ينظر: بدر العبد القادر، "المشهد اللغوي الأكاديمي: دراسة وظيفية لغوية"، *مجلة كلية دار العلوم*، ١٣٨، ٣٩ (يناير وفبراير ٢٠٢٢): ٤٧٦.

(٩) ينظر: نوره الحربي، "الوظيفة التواصلية الإبلاغية للغة والتعدد الوظيفي"، *مجلة القراءة والمعرفة*، ٢٢٩، ٢٠ (نوفمبر ٢٠٢٠): ٨٠.

(١٠) ينظر: فرديناند دي سوسير، *محاضرات في الألسنية العامة*، تر. يوسف غازي، ومجيد النصر، الطبعة الأولى، (بيروت: دار نعمان للثقافة، ١٩٨٤)، ص١٦٤-١٧١.

(١١) ينظر: أحمد المتوكل، *اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري*، الطبعة الأولى، (الرباط: منشورات عكاظ، ١٩٨٩)، ص٦٥.

أولًا- الجغرافيا

تبلغ الرسالة المصريَّة عن مجموعة من الأخبار عن جغرافية مصر ونيلها، ومن أبرز تلك الأخبار:

١- موقع مصر ومساحتها: يقول أبو الصلت: "أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة في قسمي الإقليم الثاني والإقليم الثالث، ومعظمها في الثالث"[١٢]. بمعنى أن مدنها وأرضها تقع في إقليمين، الثاني وقصد به الجنوب، بما فيه السودان، أما الثالث، فقصد به الشمال، وامتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأشهر مدنه القاهرة والإسكندرية والفيوم[١٣]، الأمر الذي يدل على سعة مساحتها، وامتدادها، واشتمالها على البحار والأنهار والصحاري وغيره.

٢- حدود مصر: يقول أبو الصلت: "حَدُّها في الطول من مدينة برقة التي في جنوب البحر الرومي، إلى آيلة من ساحل الخليج... وحَدُّها في العرض من مدينة أسوان إلى رشيد"[١٤]. وعليه فإنه حدد طولها وعرضها؛ فالطول ممتد من (برقة)، وهي إحدى المدن الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتتبع اليوم لدولة ليبيا، ويمتد حتى (آيلة)، وهي مدينة العقبة الأردنية، أما عرضها، فيمتد من (أسوان) المصريَّة إلى (رشيد)، أي بلاد الشام.

٣- تضاريس مصر: أشار أبو الصلت إلى تنوع تضاريس أرض مصر بين السهول والجبال، فمن الجبال يقول: "ويكتنفها من مبدئها إلى منتهاها جبلان، أحدهما في الضفة الشرقية من النيل، وهو المقطم، والآخر في الضفة الغربية، والنيل منسرب بينهما، وهما أجردان غير شامخين، يتقاربان جدًّا في وصفيهما"[١٥]. ولعل أهم ما يخبرنا عنه هو اسما هذين الجبلين، ومكانهما وعدم علوهما.

أما الأرض المنبسطة، فيقول: "فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي"[١٦]. فهو يشير إلى انبساط الأرض في هذه المنطقة، ثم يحدد المسافات بين المدن والقرى، ومن ذلك قوله عن المسافة بين مدينتي (أسوان وتنيس): "ستة وخمسون ميلًا وثلثا ميل... وذلك مسافة سير عشرين يومًا أو قريب من ذلك"[١٧]. وعليه فإنه يحدد المسافة بدقة، مما يدل على علمه بالجغرافيا وحساب الطرق.

٤- نهر النيل: أشار إلى منبعه "وراء خط الاستواء، من جبل القمر"[١٨]، وحدد موعد فيضانه في شهر (يوليه)، وعند ذلك تصبح "أرض مصر بأسرها بحرًا غامرًا"[١٩]، ويلجأ "الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل"[٢٠] خوفًا من الفيضان.

---

(١٢) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٥.

(١٣) ينظر: تقي الدين المقريزي، *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية*، تح. محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، الطبعة الأولى، جزآن، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٨)، ج١، ص٤٤-٤٥.

(١٤) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٥.

(١٥) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٥-١٦.

(١٦) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٦.

(١٧) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٦.

(١٨) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٦.

(١٩) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٠.

(٢٠) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٠.

ثانيًا- السكان وأعراقهم وصفاتهم

تخبر الرسالة عن تنوع الأعراق في مصر واختلاطها، "فأرض مصر أخلاط من الناس"[٢١]، وفيها "قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن"[٢٢]، وسبب هذا التنوع هو "اختلاط المالكين لها والمتغلبين عليها"[٢٣]، من مختلف الأجناس والأعراق، وربما أن السبب وراء ذلك، هو هجرة كثير من أصحاب الأموال وعبيدهم من الأعاجم والعرب إلى مصر للعمل فيها واستثمار أموالهم، لوفرة الماء فيها وخصوبة تربتها، فضلًا عن سواحلها وموانئها وطرقها التجارية التي تسهل عملية التبادل التجاري والاقتصادي.

أما صفاتهم، فقد غلب عليها "اتباع الشهوات، والانهماك في الملذات، والاشتغال بالترهات... وضعف المرائر والعزمات"[٢٤]، ولعل ذلك يعود إلى الثراء عند بعضهم؛ إذ إنه أحد أسباب الانغماس في الشهوات، وترك المحمودات، إضافة إلى أن الثري قد يكون فاقدًا للعزيمة؛ لأن ثمة من يخدمه ويقوم عليه، وربما أن الكاتب قد بالغ في وصفه؛ لأنه أراد أن يذم أهل مصر، ويحط من شأنهم، بسبب ما لقيه في بلدهم من إهانة وسجن.

ثالثًا- المذاهب والمعتقدات

أشار أبو الصلت إلى عدد من ديانات أهل مصر ومعتقداتهم، ومنها:

١- دين النصرانية: ذكر أن هذا الدين ظهر في مصر منذ أقدم العهود، وقد تنصر أهلها، وعندما فتحها المسلمون أيام (عمر بن الخطاب) -رضي الله عنه- أسلم بعضهم، وبقي بعض منهم على دين النصرانية[٢٥]. ومعلوم أن بعض أهل مصر ما زالوا إلى اليوم يدينون بالنصرانية، وفي زمن أبي الصلت كانوا كذلك، مما يدلُّ على أن الخلافة الفاطمية -على الرغم من أنها إسلامية- فإن التعايش مع المسيحية كان سائدًا فيها.

٢- المعتقدات والتنجيم: ذكر أبو الصلت أن أهل مصر يؤمنون بالتنجيم، ودور الكواكب في حياة البشر، ومن ذلك زعمهم أن (هرمس الأول) المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة، وهو من نسل (آدم) -عليه السلام- استدل بأحوال الكواكب على أنَّ الطوفان يعم الأرض، فأكثر من بنيان الأهرامات، وإيداعها الأموال وصحائف العلوم حفظًا لها، واحتياطًا عليها[٢٦] .

أما قبط مصر، فيعتقدون أن سبب بناء الأهرامات هو أن هناك آفة ستنزل من السماء، وأن الأهرامات تحفظ مصر من تلك الآفة[٢٧]. ونقل أبو الصلت عن بعضهم أن في مصر مَنْ هو مختص بعلم المرايا، والطلسمات والنيرنجيات[٢٨]، الأمر الذي يؤكد اعتقادهم بالتنجيم، وعلم الطلاسم وما فيه من خرافات وبدع.

(٢١) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٣.

(٢٢) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٣.

(٢٣) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٤.

(٢٤) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٤.

(٢٥) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٤.

(٢٦) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٧.

(٢٧) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٨.

(٢٨) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٩.

رابعًا- الآثار والحضارة

تحدث أبو الصلت عن الآثار العجيبة في مصر كالهرمين والبرابي، وهي "كلمة قبطية، تعني موضع العبادة والبناء المحكم"[٢٩]، يقول: "الأهرام والبرابي، فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة، واستعجزت الأفكار الراجحة"[٣٠]، مما يدل على عظمتها ودقة بنائها، لذا فإنها من العجائب؛ إذ لا "شيء أعجب وأغرب بعد مقدورات الله ومصنوعاته، من القدرة على بناء جسم من أعظم الحجارة"[٣١]. ثم إنه يشير إلى شكلها وحجمها ومساحاتها، فهو (الهرم) "مربع القاعدة مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلاثمئة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعًا، يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع، طول كل ضلع منها أربعمئة ذراع وستون ذراعًا"[٣٢]. وهذا الحديث يدل على سعة اطلاع الكاتب ومعرفته بالقياسات، وأنه كان عارفًا بها، دارسًا هندسة الأهرامات وشكلها، فضلًا عن أنه يدل على براعة من بناها ودقة صنعته وإتقانه لها.

أما البرابي، فقد ذكر منها "بربا أخميم، وبربا سمنود، وبربا دندرا"[٣٣]، وتحدث عن إحكام بنائها وجودة شكلها، وأشاد بمن بنوها، فهم "ذوو عقول راجحة، وأنه قد كانت لهم بالحكمة عناية بالغة"[٣٤].

وأشار إلى حضارة مصر وعواصمها قديمًا وحديثًا، فالملك فيها منذ قديم الزمان، وكانت العاصمة "منف، وهي مدينة في غربي النيل، وعلى مسافة اثني عشر ميلًا من الفسطاط"[٣٥]، وعندما بُنيت الإسكندرية رغب الناس في عمارتها، فأصبحت هي العاصمة [٣٦]، وفي عهد (عمرو بن العاص) صارت (الفسطاط) هي المقر والقاعدة[٣٧].

ولكي يؤكد عمق حضارة مصر، سرد أسماء عدد من العلماء من اليونان، والروم الذين سكنوها وعمروها بعلمهم واختراعاتهم أمثال "هرمس الثالث الفيلسوف، ودبوفنطس عالم الجبر والعدد، والإسكندراني عالم الفلك، وأنقلاؤس الإسكندري عالم الطب ووالليس العالم في أحكام النجوم"[٣٨].

خامسًا- الأدباء والظرفاء

عرّج أبو الصلت على ذكر من لقيه من الأدباء والظرفاء في مصر، أمثال "أبي الحسن علي بن نصر المعروف بالأديب، وأبي الطاهر بن إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة، وهو من الشعراء المشهورين، وأبي الحسن علي بن جعفر بن النون الشاعر، وأبي مشرف الدجرجاوي الشاعر المصري"[٣٩]. ولعله ذكر المعروفين منهم أو من لقيهم أو سمع بهم، ولم يذكر الباقين لعدم معرفته بهم.

---

(٢٩) ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، تح. فريد الجندي، ٧ أجزاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ج١، ص٤٣١.

(٣٠) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٥.

(٣١) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٥.

(٣٢) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٥.

(٣٣) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٨.

(٣٤) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٩.

(٣٥) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٩.

(٣٦) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٩.

(٣٧) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٩.

(٣٨) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٩-٣٠.

(٣٩) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣٠-٥٣.

أما الظرفاء، فقد تحدث عن نماذج منهم، وساق حكايات من ظرفهم، وخاصة من اختصَّ بأحكام النجوم منهم، وأورد قصصًا لهم ساخرًا منها، وعدّها من الغرائب، فقد "حبس أحد الولاة رجلًا، فتشفع بعضهم له، فأخرج السجين من كمه اصطرلابًا، ونظر فيه ليعرف طالع الوقت، فوجده مذمومًا، وأنه لا يصلح أن يخرج من السجن في هذا الوقت، فلما وصل الخبر إلى الوالي تعجب من جهله وفساد عقله، وأطال مدة اعتقاله"(٤٠).

وأشار إلى جهلهم في الطب، وضرب أمثلة من الأطباء وحكاياتهم، فهذا "جرجس الطبيب كان يزوّر فصولًا طبية وفلسفيَّة، يبرزها في معارض ألفاظ القوم، وهي محال لا معنى لها، وفارغة لا فائدة فيها"(٤١).

نظرة في الأخبار السابقة

جاءت لغة الرسالة واضحة إلى حد بعيد، وأدت وظيفة التبليغ أو الإخبار؛ إذ يستطيع القارئ أن يتعرف إلى معلومات جديدة أو معروفة عنده فتترسخ في نفسه، وعليه فإن هذه اللغة نجحت في تحقيق تلك الوظيفة الأساسية (التبليغ)، لأنه من شروط البلاغة اللغوية "أن يكون معنى الكلام واضحًا ظاهرًا جليًّا، لا يحتاج إلى فكر في استخراجه وتأمل لفهمه"(٤٢)، وهذا الوضوح يسهل عملية التواصل الذي يرتكز على اللغة.

تقوم عملية التواصل على عناصر عدّة، هي المُرسِل والمُرسَل إليه والمرجع والقناة والسنن والرسالة (٤٣)، وقد جاءت لغة الرسالة المصريَّة منسجمة مع هذه العناصر؛ فالمرسِل واضح، وهو كاتبها، والمرسَل إليه هو الأمير (ابن باديس) الذي رغب في معرفة مصر وأخبارها، فضلًا عن أنها موجهة إلى كل شخص في أي زمان ومكان، أما المرجع، فهو محتواها وما تضمنت من أخبار ومعلومات، وسننها هي طريقة تأليفها وتركيبها التي أدت إلى فهمها، واحتوت رسالة واضحة تعريفية لمصر وأخبارها وجغرافيتها وعلومها ورجالها وغير ذلك.

وتأسيسًا على ما سبق، يمكن القول: إن وظيفة اللغة التبليغيَّة حققت التواصل بين المتكلم والمخاطب، من خلال مرجعها ومحتواها ورسالتها وسننها في عرض ذلك كله، مما يجعل اللغة نظامًا لأداء المعنى، هدفه إيصال الرسالة بوضوح ليفهمها المتلقي، ويدرك ما تضمنته من معارف ومعلومات، فيكون محور التخاطب هو الفهم والإفهام. والمتأمل في الرسالة المصريَّة يدرك أن لغتها ارتكزت على تحقيق الفهم، من خلال إيرادها معلومات وأخبارًا واضحة وذات قيم عدّة أبرزها:

أولًا- إخبارها عن منبع نهر النيل وامتداده، وجغرافية مصر وتنوع تضاريسها بين السهول والجبال، ولعل هذا الأمر معلومٌ عند كثير من الناس، إلا أن الحديث عنه يذكرهم به، ويؤكد معارفهم عنه.

ثانيًا- الإخبار عن تعدد الأعراق في مصر واختلاطها، ولعل أغلب الناس يظنون أن أهل مصر فراعنة ثم مسلمون

(٤٠) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٤٠.

(٤١) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣٦.

(٤٢) ابن سنان الخفاجي، *سر الفصاحة*، تح. علي فودة، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٣٢)، ص٢٠٩.

(٤٣) رومان جاكبسون، "التواصل اللغوي ووظائف اللغة"، *ضمن الألسنية (علم اللغة الحديث): قراءات تمهيدية*، ميشال زكريا، الطبعة الثانية، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٥)، ص٨٥-٩١.

ونصارى، فالمعلومات تجعل المتلقي غير المطلع يتعرف إلى هذه الأعراق وتنوعها.

ثالثًا- إيراد عدد من الأسماء اليونانية والرومية والعربية أمر له فائدة تعود على المتلقي؛ إذ يجعله يتعرف إليها وإلى تميز كل واحد منها بعلم من العلوم، الأمر الذي قد يكون يجهله من قبل.

رابعًا- الغرابة في افتتان المصريين بأحكام النجوم وسذاجتهم في ذلك، وكذلك في علم الطب وجهلهم فيه، على العكس من حاضرنا؛ إذ تتميز مصر بالطب والعلم والدين.

ومهما يكن، فإن مثل هذه الأخبار تحقق التنبيه بين المرسل (الكاتب) والمتلقي (المرسل إليه)؛ لأنها تنبه المرسل إليه على ما تحدث به المرسل وتُذكِّره به، وقد يكون عارفًا به، لكن اللغة تؤكّده وترسّخه في نفسه؛ لأنه يقوم على حقائق معلومة لا يمكن إنكارها، وقد لا يكون عارفًا بها، فيتعرف إليها، وتكون اللغة وسيلة لنقل معلومات جديدة، فتتحقق وظيفة التبليغ التي هي أساس الخطاب وموضوعه، والإعلام عن محتواه.

المبحث الثاني: جماليات اللغة التبليغيَّة في الرسالة

على الرغم من أن التبليغ يحتاج إلى لغة واضحة مفهومة، إلا أن هذا لا يعني أن تخلو من بعض الجماليَّات التي تجذب المتلقي نحو النصّ، وتحقق الشاعرية له، ولا تكون هذه الجماليَّات عنصر تعمية، بل هي عنصر يؤدي إلى تأكيد الأخبار وتوضيحها، وجعلها سهلة على الفهم.

صاحب الرسالة المصريَّة هو شاعر وأديب، ومن الطبيعي أن تتضمن لغة رسالته بعض القيم الجماليَّة، ذات الأبعاد الفنية التي تُسهم في جعل نصّه أدبيًّا، ولغته الإبلاغية فيها مُحفِّزات جماليَّة، تؤكد المعاني وتركزها، وتجعل عملية الفهم ممكنة، وفي الوقت ذاته تشير إلى قدرة الكاتب على استثمار اللغة ومفرداتها، لتوضيح معانيه بأسلوب لا يجعل القارئ يشعر بالملل.

والناظر في الرسالة يدرك أن نصها ولغته اشتملا على عناصر جماليَّة، لا تطغى على المعنى، بل إنها أفادته وأكَّدته، ومن أبرز تلك الجماليَّات:

أولًا- الوصف

يلعب الوصف دورًا مهمًّا في بناء النص؛ إذ يساعد في توضيح معانيه وتفصيلها، وينطوي على استعمال لغة تصف الشخوص والأمكنة والأزمنة والأحداث وغيرها، وتُسهم في تمثيل الأفكار والمرئيات، سواء أكانت واقعية أم متخيلة؛ لأنها -أي اللغة- "قادرة على استجلاء الأشياء المرئية وغير المرئية"[٤٤]، وقد يكون الوصف مباشرًا تقريريًّا أو يأتي من خلال لغة شاعريَّة وخيال تصويري.

لقد لجأ أبو الصلت إلى الوصف على مستويين، الأول الوصف المباشر للأماكن والجغرافيا؛ فقد وصف بلاد مصر وتضاريسها ونيلها وأهراماتها، وأسهب في وصف طولها وعرضها[٤٥]، أما الآخر، فهو الوصف الشاعري الذي ينطوي -أحيانًا- على التصوير والخيال، وتنوع وصفه هذا بين وصف الأمكنة والشخوص بوجه عام، أو وصف شخصية واحدة، فمن وصفه الأماكن قوله عن إحدى البرك (بركة الحبش): "فافترشنا من زهرها أحسن بساط، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق، وطلعت علينا من زُجاجات الأقداح شموس في خلع البدور، ونجوم بالصفاء تنور، إلى أن جرى

(٤٤) ينظر: سيزا قاسم، *بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ*، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة لكتاب القاهرة، ١٩٧٨)، ص١٠٨-١٠٩.

(٤٥) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٥-٢٠، ص٢٤-٢٨.

ذهب الأصيل على لجين الماء، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء"[٤٦]. إنه يمزج في وصفه بين عناصر الطبيعة، من خضرة وأشجار وشمس وقمر وماء، ويرسم لوحة فنية للأرض المحيطة بالبركة؛ إذ هي كالبساط المنسوج من الأزهار، وسقفها من الأشجار يُستظل تحته، وأشعة الشمس كأنها خمرة لامعة مشعة، خرجت من أقداحها ثم ما لبثت أن تحولت إلى سلاسلَ من ذهب سالت في الماء، بل هي نار ملتهبة أطفأها ظلام الليل.

تمثل هذه اللغة الشاعرية الوصفية مرحلة قصيرة من مراحل السَّرد، ولا تعطله، فما هي إلا استراحة لحركته، تصور معنى من المعاني التي أرادها الكاتب، يتمثل بجمال المكان وروعته، ثم إنه يعكس مشاعره تجاه هذا المنظر الذي حَفَّزه إلى استعمال هذه اللغة المفعمة بالرهافة والجمال، الأمر الذي يجعل للسَّرد قيمة متعلقة بجذب المتلقي نحوه، وعدم شعوره بالملل الذي ينتج عن الكلام التقريري المتتابع.

ويمزج الكاتب -أحيانًا- بين وصف المكان وصاحبه ومَنْ فيه، ومن ذلك وصفه مجلس الأمير (ابن باديس)؛ إذ يقول: "الذي لم تزل حضرته مصاد العناة، ومراد العفاة، ومجتمع الفضائل، ومنتجع الأفاضل، ومشرع الجود ومشعر الوفود"[٤٧]، ومن خلال هذه الوقفة الوصفية يضفي على (ابن باديس) صفات عدّة أهمها أنه ملجأ الخائفين "مصاد العفاة"[٤٨]، أي أن حضرته كموضع الصيد الذي يجتمع فيه الصيادون ليجدوا ما يسرهم، ويلجأ إليه كذلك كل خائف أو أسير فيعينه، وأنه -أيضًا- صاحب عفو وفضائل، وهو كريم ومجلسه يعجُّ بالوفود والزوار. ويصف المجلس (المكان) أيضًا؛ فهو فسيح يتسع للوفود والزائرين، مما يدل على أنه مجلس كرم ووفادة، ثم إنه لا يأتيه إلا أصحاب الفضل والأخلاق المحمودة.

إن هذه الجمل الوصفيَّة القصيرة المتتابعة، تُكسب النصَّ سمة الإيجاز، مع التعبير عن معانٍ كثيرة، وتساعد في تكثيفها وتركيزها؛ إذ إنها -على قلتها- تعبر عن المعنى المقصود، ولأنها تقوم على المجاز والتصوير، فإنها تكسبُ النصَّ -أيضًا- جماليَّة متعلقة بالخيال الذي يُحفِّز المتلقي على معرفة ما وراءه، وتجذبه نحوها؛ ليتذوقها ويدرك مراميها.

أما وصف الشخوص، فقد جاء على مستويين: الأول وصف شخوص مجتمعة وعامة، دون تحديد شخصية بعينها، ومن ذلك وصفه أهل مصر في زمانه؛ إذ يقول عنهم: "ولم يبقَ إلا رعاع وغثاء، وجهلة دهماء وعامة عمياء، وجُلُّهم أهل رعانة، ولهم خبرة بالكيد والمكر"[٤٩]، وجاء هذا الحديث بعد أن أشار إلى حكماء مصر وعلمائها قبل زمانه، وأشاد بهم وبعلمهم، إلا أنه -ربما- تحامل على أهل زمانه منهم، لما لقيه من تَنكُّر في أرضهم -كما أسلفت- وفي وصفه ذم وهجاء لاذع؛ إذ نفى عن مصر وجود أي عالم أو حكيم -وهذا فيه مبالغة- والذين بقوا فيها ما هم إلا رعاع وغثاء وجهلة يتصفون بالرعونة والكيد والمكر.

لقد أتى بكل هذه الصفات القبيحة؛ لكي يجعلها كلها لأهل مصر في زمانه، وينفي عنهم كل فضيلة، وجاء بألفاظ قاسية فيها شدة وعنف، توحي بأنهم لا فائدة من وجودهم، فهم كغثاء السيل، وهم جهلة طائشون لا يعرفون إلا الكيد لبعضهم ولغيرهم، ومثل هذه الألفاظ والعبارات تشد

(٤٦) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٢٠.

(٤٧) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٣-١٤.

(٤٨) المصاد: موضع الصيد. ينظر: جمال الدين بن مكرم بن منظور، *لسان العرب*، اعتنى به. أمين عبد الوهاب، ومحمد العبيدي، الطبعة الثالثة، ١٨ جزءًا، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩)، ج٧، ص٤٥٠. العناة: جمع عانٍ، وهو الأسير. ينظر: ابن منظور، *لسان العرب*، ج٩، ص٤٤٣..

(٤٩) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣٠.

المتلقي، وتلفت انتباهه، وهذه غاية الكاتب؛ لأنه يريد أن يعرّف المتلقي إلى أهل مصر وصفاتهم، من خلال هذه اللغة التي "تحرك التأويل لديه ليرسم أفقًا واقعيًّا للموصوف"(٥٠)، ويتأثر بهذا الأفق، ليصل إلى نتيجة يقتنع من خلالها برأي الكاتب أو ربما لا يقتنع.

أما المستوى الآخر لوصف الشخوص، فيتمثل بوصفه شخصيات منفردة، كوصفه نفسه بعد أن سُجن في مصر وخرج وهاجر منها، يقول: "فكنتُ... كنصل أُهمل أمره من جهل قدره"(٥١)، فقد لجأ إلى التصوير الفني المرتبط بالخيال، ورسم لنفسه صورة تشبيهية جعلته كالسيف الذي لم يقدره حامله فأهمله؛ لأنه جاهل به وبمنزلته، ولعله أراد من هذه الصورة أن يجعل المتلقي يشعر بالظلم الذي أصابه فيتعاطف معه، وفي جعل نفسه كالسيف دلالات تتعلق بالشجاعة؛ لأن السيف سلاح الفارس.

ونجده في وصف شخوص مصر يكثر من ذمهم، ولا يمدح منهم إلا القليل، ومن أمثلة ذلك ذمه أحد المنجمين منهم، يقول: "وهو شيخ مطبوع يتطايب ويتخالع"(٥٢)، فقد بدأ بكلمة (شيخ) التي تحمل دلالة الوقار والحشمة، إلا أنه جاء بها ليسخر من ذلك الرجل، وهي مفارقة لطيفة، طرفها الأول الرجل الموصوف، والآخر (الشيخ) وغرضها التهكم، ودليل ذلك أنه وصفه بالخلاعة وإظهارها، فكيف يكون شيخًا وخليعًا في آن واحد؟

وفي مدحه آخر يصفه بأنه: "من الأفاضل المعدودين من حسنات هذا الزمان"(٥٣)، فهذه العبارة وما فيها من لفظة (المعدودين) توحي بالقلة؛ إذ إن الأفاضل من أهل مصر معدودون على الأصابع، ومن اتّصف منهم بالفضل، فهو حسنة فريدة في زمانه.

ومهما يكن، فإن وصف أبي الصلت بأشكاله ومستوياته وتنوع موصوفاته، حقق وظائف عدّة، أبرزها: الإخبار والإعلام؛ إذ غدا هذا الوصف وسيلة لإيصال معلومات عن الأماكن وشخوصها، وكذلك فقد حقق وظيفة التقييم، من خلال تقييم الشخوص وصفاتهم وأخلاقهم، الأمر الذي جعله عنصرًا فاعلًا في بناء النص، وإكسابه قيمًا معنوية وفنية متعلقة بتوضيح الأفكار وبسطها، لتصل إلى المتلقي ويفهمها، فضلًا عن جماليَّات التصوير والتعبير، من خلال الصور والخيال المرهون بالحقائق والمعاني.

ثانيًا- التناص

يعدّ التناصُّ آلية من الآليات التي تعين الكاتب على بناء نصوصه معنويًّا وفنيًّا، ويعتمد استعماله على قدرة الأديب على استيعاب جهود من سبقه، وتكييفها لتتناسب مع نصّه، وتساعد في إنتاجه وجعله قابلًا للتأويل المرهون بالمتلقي، وإذا نجح في هذا فإنه يحقق غاية التناص المرتبطة بـ"تفاعل النصوص يعضها ببعض، وتعالقها لتخلق نصًّا جديدًا يتشظى في نص آخر"(٥٤)، ويكون هذا التفاعل "دليلًا على

(٥٠) ينظر: أسماء شاوي، "وظائف الوصف في المقامات اللزومية للسرقسطي الأندلسي"، *مجلة مقاربات*، ١، ٤ (٢٠١٦): ٢٦٨.

(٥١) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٤.

(٥٢) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣٨.

(٥٣) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣٨.

(٥٤) ينظر: جمال مباركي، *التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر*، (الجزائر: دار هومة للنشر، ٢٠٠٣)، ص١١٨.

الكيفية التي يقوم بها النص بقراءة التاريخ والاندماج فيه"[٥٥]، وهذا الاندماج يضفي على النص الجديد سمتي الأصالة والابتكار: الأصالة المتعلقة بالنصوص القديمة التي تشربها أو امتصها النصُّ الجديد، والابتكار متعلق بالنص الجديد الذي جاء بمعانٍ جديدة مندمجة في الماضي.

لقد استعمل أبو الصلت التناصَّ في رسالته من خلال مستويات عدّة، منها أنه يأخذ معنى دينيًّا أو ألفاظًا قرآنية أو نبوية، ويدرجها في نصِّه لتكون متسقة مع المعنى الذي يريده، ومنها ما يقتبسه اقباسًا مباشرًا، كأن يأتي بقول أو مثل أو بيت شعري في سياق يحتاجه وينسجم معه، ثم إنه أكثر من مزجه بين الشعر والنثر؛ فتارة يأتي بأشعاره وأخرى بأشعار غيره، وكان هدفه الأساسي من هذا كله تحقيق وظيفة الإخبار أو التبليغ عمّا يريده، إلا أن هذا لا يعني أن التناصَّ لم يحقق أبعادًا جماليَّة في النص، بل على العكس من ذلك، فإن جمالياته ساعدت في بناء النص وتحقيق غايته.

لقد وصف أبو الصلت أهل مصر وجهل علمائها، فقال: "لم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وطمس أفهامهم"[٥٦]، وهو في هذا يتناص مع قوله تعالى في سورة النحل: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (النحل: ١٠٨)، إذ أراد أن يذمهم، ويصفهم بالجهل والغفلة، فاستعان بالآية القرآنية وألفاظها ومعانيها، ليرسم لهم هذه الصورة المعبرة عن حالتهم القائمة على عدم الفهم والتفكير، وعدم استعمال قلوبهم وأبصارهم للغاية التي أرادها الله -عزّ وجلّ- من خلقها، المتمثلة بالتفكير والإدراك والفهم.

إن استعمال الآية ومفرداتها جاء متطابقًا مع المعنى الذي قصده الكاتب، بمعنى أنه لم يستعملها في معنى جديد، إلا أن هذا التناص القرآني أكسب النصَّ قيمة منبثقة من قداسة الآية وأهميتها، وتكون النتيجة الإقرار من المتلقي بفكرة الكاتب؛ لأنها ناتجة عن تعبير قرآني لا شك فيه.

ويشير الكاتب إلى أنه هجر موطنه مضطرًّا -على الرغم من تعلقه به-يقول: "واضطررتُ إلى مفارقة الوطن... فتماسكت إشفاقًا من مفارقة أول أرض مسَّ جلدي ترابها، وشُدّت عليَّ التمائم بها"[٥٧]، إذ يعبر عن حالة الفراق، ويصور مأساته، ويحاول التماسك والتصبر، ويرسم الصورة أمام المتلقي، مستعينًا بألفاظ بيت شعري للرقاع بن قيس الأسدي ومعناه، يقول فيه:[٥٨]

بلادٌ بها نِيطت عليّ تمائمي وأولُ أرضٍ مسَّ جلدي ترابُهَا

يعبر كلاهما -أبو الصلت والرقاع- عن حبهما وطنهما؛ إذ هو أول أرض وطأتها قدماهما، وكبرا فيه حتى أصبحا يرتديان التمائم، والتناصُّ يضفي على السياق حركة ونشاطًا، يتمثلان في محاولة المتلقي البحث عن أصل الخطاب، ومن أين استقاه الكاتب؟ ليتعرف إلى مصدره واسم قائله ومناسبته، إضافة إلى النشاط العقلي الذي يمارسه، من خلال تأويله النصَّ وتفسيره، ليدرك العلاقة بين النصين: الجديد والقديم، ومدى انسجامهما للتعبير عن المراد.

والسمة البارزة للتناصِّ في الرسالة هي التفاعل بين القديم والجديد؛ إذ يأتي أبو الصلت بنصوص نثرية أو شعرية تتناص مع سابقتها، وتكون متطابقة إلى حد كبير في المعنى فيتحقق التفاعل، إلا أن القيمة هنا تتمثل بإحياء ذلك القديم، وإعادة بث الحياة فيه من جديد، وتذكير المتلقي به وبأهميته.

---

(٥٥) ينظر: منير سلطان، *التضمين والتناص: وصف رسالة الغفران للعالم الآخر نموذجًا*، (الإسكندرية: منشأة المعارف، ٢٠٠٤)، ص١١٣.

(٥٦) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣١.

(٥٧) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١١.

(٥٨) ابن منظور، *لسان العرب*، ج١٤، ص٣٢٧.

وقد كثرت الأشعار في الرسالة، وتناص بعضها مع أشعار سابقة عليها، ومن ذلك قول أبي الصلت:[٥٩]

تلقى بكلِّ بلادٍ إنْ حللتَ بها أهلًا بأهلٍ وأوطانًا بأوطانِ

وجاء البيت في سياق مواساة الكاتب لنفسه، وهو يستعد للهجرة من وطنه، محاولًا أن يتصبر من خلال جعله كل البلاد التي قد ينزل فيها أهلًا ووطنًا له، وقد سبق إلى هذا صريع الغواني؛ إذ يقول:[٦٠]

لا يمنعنَّكَ خفض العيشِ نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ

فكلاهما يشجع على السفر والترحال، إلا أن أبا الصلت عزا سبب سفره إلى الفقر في وطنه، محاولًا أن يجد الرزق في غيره، وواسى نفسه بالبيت الشعري، ومعناه القائم على أن كل البلاد قد تكون وطنًا له، أما صريع الغواني، فإنه ينفي أن يكون السفر من أجل طلب الرزق، بل إن على الإنسان السفر وتحقيق رغبات نفسه النازعة إلى الهجرة، وستجد أهلًا ووطنًا، حتى وإن كان يعيش في رغد ونعيم في وطنه، فإن هذا لا يمنعه من الترحال.

حقق هذا التناصُّ وظيفة تتعلق بالإحالة التي تمثل مرجعًا وبرهانًا؛ إذ يحيل إلى نص يؤكد رغبته في السفر، كأنه يبحث عن مبرر أو حجة، فأتى بنص مرجعي يؤكد حالة السفر، وإن كان الإنسان متنعمًا في وطنه، فكيف إذا كان فقيرًا، فإن السفر يصبح أمرًا حتميًّا.

والسمة الأخرى في الرسالة من ناحية التناص هي استعمال الكاتب الاقتباس المباشر؛ إذ يأتي بعبارات أو أبيات شعرية، دون أن يغيّر فيها، فتمثّل قالبًا جاهزًا أخذه من غيره، وجعله منسجمًا مع معانيه، الأمر الذي يمثل دليلًا يؤكد ما جاء به، فضلًا عن تحقيقه الوظيفة التعبيرية المرتبطة بتعبير الكاتب عن فكرة ما، ولكي يؤكدها ويرسخها يأتي بما يساندها من كلام غيره، ومن الأمثلة على ذلك قوله في وصف (ابن باديس) وحضرته:[٦١]

فلم أستسِغْ إلا نَداه فلم يكن ليعدِلَ عندي ذا الجنابَ جنابُ
ومَا شئت إلا أنْ أدُلَّ عواذلي على أنَّ رأيي في هواكَ صوابُ
وأُعلِمَ قومًا خالفوني فشرَّقوا وغرّبتُ أني قد ظفرت وخابوا

فالبيتان الثاني والثالث اقتبسهما اقتباسًا مباشرًا من إحدى قصائد المتنبي في كافور الإخشيدي[٦٢]، واستطاع أبو الصلت أن يجعلهما منسجمين مع أبياته من ناحية المعنى والإيقاع، ومثل هذا الاقتباس يرسخ المعنى، ولا سيما أنه يستند إلى شعر شاعر مشهور (المتنبي)، ويُكسب النصَّ سمة جماليَّة؛ لأنه يقوم على الإحالة إلى نص معروف غرضه المدح، الأمر الذي لا يجعل التناصَّ يحقق دلالات جديدة، وإنما يؤكد الدلالات نفسها، ولكن استحضارها من جديد، يشدُّ انتباه المتلقي إليها الذي ربما نسيها أو لم يسمع بها من قبلُ.

أما المزج بين النثر والشعر، فهو كثير في الرسالة؛ إذ يمزج الكاتب بين نثره وشعره هو[٦٣]، أو يأتي بأشعار غيره[٦٤]، ولعل هذا المزج هو أقرب للتضمين أو الاقتباس، ويبتعد عن التناص بمعناه القائم على امتصاص النصوص، وإعادة إنتاجها وتحويرها، مع الأخذ بمدلولاتها الأصلية أو قلبها أو غير ذلك.

---

(٥٩) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٢.

(٦٠) مسلم بن الوليد صريع الغواني، *شرح ديوان صريع الغواني*، تح. سامي الدهان، الطبعة الثالثة، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥)، ص٣٤١.

(٦١) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٤.

(٦٢) ينظر: أحمد بن الحسين المتنبي، *ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري*، تح. مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، الطبعة الثانية، ٤ أجزاء، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ج١، ص١٩٩.

(٦٣) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٨-١٩، ص٢١-٢٥، ص٤١-٤٥.

(٦٤) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣١-٣٤، ص٣٦، ص٤٥.

وأتى أبو الصلت بكثير من هذه الأشعار التي هي له أو لغيره؛ ليعقد مقارنة بينها وبين أشعار أهل مصر؛ ليخلص إلى نتيجة مفادها عجز شعراء مصر عن الإتيان بمثلها، بما تتضمن من معانٍ وألفاظ وصور، والمقارنة عنده تنتهي بالتفضيل المطلق لأشعاره والأشعار التي أتى بها من غيره؛ لينفي عن شعراء مصر القدرة على مجاراتها، ومن الأمثلة على ذلك حديثه عن البليغ الحاذق الذي إذا وصف شيئًا أعطاه حقه، ووصفه بما يناسبه في حالتي مدحه وذمه[٦٥]، وأشار إلى عجز شعراء مصر عن هذا، من خلال طرحه استفهامًا إنكاريًّا فيه سخرية عن شاعر مصري؛ إذ يقول: "فأين هذا الشاعر في أدبه وحذقه بالصناعة وفطنته من أبي علي الحسن بن رشيق"[٦٦]، ثم يأتي بأمثلة من أشعار القدماء، وقد وصفوا مظاهر طبيعية كقول ابن المعتز في القمر:[٦٧]

يا سارقَ الأنوارِ من شمسِ الضُّحى يا مُثكلي طيبَ الكَرى ومُنَغِّصِي

ويكثر من هذه المقارنات القائمة على ان المصريين مهما قالوا شعرًا، فلن يأتوا بشيء جديد أو فريد، مثلما أتى به غيرهم من شعراء المشرق والمغرب، وفي خلال هذه المقارنات يأتي بأشعار كثيرة لشعراء كُثر أمثال (ابن الرومي)[٦٨]، و(أبو الشمقمق) الشاعر العباسي[٦٩]، و(العباس بن الأحنف)[٧٠]، وغيرهم.

وكما أسلفتُ فإن هذه الاقتباسات تمثل قوالب جاهزة، يأتي بها الكاتب دون عناء، ولا يضيف إليها أية دلالات جديدة، وإنما هدفه تفضيلها وتفضيل قائليها على شعراء مصر وأشعارهم، ثم إن هذا الزخم الشعري يؤكد سعة المخزون الفكري عند كاتب الرسالة، وقدرته على استعماله في موضعه، ليكون برهانًا على ما يقول، وتأكيدًا لما يريد.

حقق التناص بأشكاله وظيفة لغة الرسالة القائمة على التبليغ؛ إذ إن نصوصه كانت تأتي بعد الأخبار التي يوردها الكاتب عن مصر وأهلها، وتمثل هذه النصوص أدلة على صدقها وواقعيتها، ومراجع يستند إليها الكاتب، ويحيل عليها، حتى يستطيع المتلقي أن يتأكد من أقوال الكاتب ويتأثر فيها ويقتنع، إضافة إلى أنه (المتلقي) يحصل على معارف جديدة، ربما لم يكن على اطلاع عليها قبل ذلك، أو أنه مطلع على بعضها، فيتذكرها من جديد وتتعزز لديه.

ثالثًا- فنون البديع

يعدّ استعمال الفنون البديعية سمة بارزة في كتابات القدماء، وقد نجح كثير منهم في جعلها وسيلة للتعبير عن معانيه ورؤاه، وعنصرًا جماليًّا في بناء نصوصه، وأفرط بعضهم في استعمالها، وطغت على المعنى وأضرته، والكاتب الحاذق هو الذي يُحسن استعمالها، وإن كثرت فإن قدرته على تكييفها مع نصوصه ولغتها، تُسهم في جعلها أداة من الأدوات المساعدة في تكثيف المعاني، والتعبير عنها وإيصال الرسالة المقصودة وتعميقها في نفوس المتلقين.

وتؤثر فنون البديع في بناء النص على المستوى الدلالي والصوتي؛ إذ "تؤدي إلى تثبيت المعاني في النفس، خاصة إذا كانت الألفاظ ذات الجرس الموسيقي تتناسب مع دلالاتها، فيؤدي ذلك إلى مزيد من الإثارة في النفس، والتنبيه والتأمل

(٦٥) ينظر: أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٤٤-٤٥.

(٦٦) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٤٥.

(٦٧) عبد الله بن المعتز، *الديوان*، تح. كرم البستاني، (بيروت، دار صادر، د.ت)، ص٢٨٦.

(٦٨) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٤٥.

(٦٩) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٥١.

(٧٠) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٥٥.

في المعنى"[٧١]، فضلًا عن أنها "تحدث إيقاعًا وتوازنًا في مقاطع الكلام"[٧٢]، مما يؤدي إلى استمالة النفس إليها.

والناظر في الرسالة المصريَّة يجد أن كاتبها أكثر من استعمال السجع، إلى جانب الجناس والطباق، وهما أقل استعمالًا منه، أما بقية الفنون البديعية، فلا تشكل حيزًا كبيرًا في النص. وجاء سجعه عبر جمل متعاقبة قصيرة، تتوالى وفق نسق واحد، وتعبر عن معنى محدد، ولم يكن هذا السجع طويلًا؛ فقد تراوح بين جملتين إلى أربع جمل، ومن أمثلته قوله في وصف رحلته إلى مصر ومشقته فيها: "وسرتُ قاصدًا إليها، أعتسف المجاهل والتنائف، وأخوض المهالك والمتالف، فطورًا أمتطي كل حالكة الإهاب، مسودة الجلباب، ثابتة كصبغة الشباب، وقد فسح ميدانها، ووضع براحة الريح عنانها، فجرت جري الطرف الجموح، وطورًا كلَّ نِقبِ الأياطل، كالهياكل"[٧٣].

تتألف القطعة النصيَّة السابقة من خمس مجموعات مسجوعة، جاء السجع في الأولى بين جملتين بفاصلتي (التنائف والمتالف)، وتصور المخاطر التي واجهته في رحلته، المتمثلة بدخوله أماكن لا يعرفها، ذات تضاريس متنوعة، بين التنائف (الصحاري)[٧٤] وغيرها، وكلها مهلكة وفيها مشقة، أما الثانية، فتألفت من ثلاث جمل، من خلال الفواصل (الإهاب والجلباب والشباب)، وتمثل أحد مراحل رحلته (الطور الأول)؛ إذ ركب سفينة (حالكة الإهاب)، بمعنى سفينة لونها أسود، كأنها جلباب أسود أو شعر غامق السواد، أما الثالثة، فجاءت عبر جملتين بفاصلتي (ميدانها وعنوانها)، وتمثل وصفًا للسفينة الواسعة التي تشبه الفرس، وقد أخذت الريح بعنانها فسارت مسرعة، أما الرابعة، فجاءت من خلال جملتين وفاصلتي (الجموح والطموح)، وهي امتداد لما قبلها؛ إذ ترسم صورة للسفينة، وتجعلها كالفرس الجموح الهائجة الغاضبة، أما الأخيرة، فجاءت عبر فاصلتي (الأياطل والهياطل)[٧٥]، وتمثل صورة ثالثة للسفينة التي تشبه الفرس؛ إذ غدت كالذئب الذي نقبت (أياطله) من كثرة السير، أي تعبت وأصابها الهزل والضعف.

وكما قلت سابقًا فإن سجعه لم يكن طويلًا ولا متكلفًا، بل إنه يأتي عبر جمل قصيرة متتابعة، ويكون بين جملتين أو ثلاث، وقد أسهمت الفواصل السجعية في تحقيق وظيفة التبليغ للغة، والتعبير عن المعاني المتعلقة بالإخبار عن مشقة الرحلة ومخاطرها، وسرعة السفينة والخوف من هذه السرعة، فهي تبلغنا عن وجود السفن في تلك الفترة، وعن صعوبة التنقل.

أما من الناحية الصوتية، فإن السجع يمثل تكرارًا متوازنًا بين نهايات الجمل، وحروف فواصلها الأخيرة، مما يحدث إيقاعًا وانسجامًا صوتيًّا متلوِّنًا؛ فمرة يكون عبر فاصلتين، وأخرى عبر ثلاث، ثم عبر اثنتين مرة أخرى وهكذا، مما يحقق تنوعًا صوتيًّا وموسيقيًّا، يجذب انتباه المتلقي، ويجعله يحسُّ بتلك الدفقات الشعورية التي يعبر عنها الكاتب، ثم إن بعض الفواصل يوقف عليها وقفة قصيرة كالتنائف والمتالف، والإهاب والجلباب والشباب، والجموح والطموح، وهي وقفة مسبوقة بمد تمثله الألف والواو، وبعضها يطول سماعها لانتهائها بالمد مثل (ميدانها وعنانها)، وهو مد مسبوق بمد

(٧١) ينظر: عبد الجواد طبق، *دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية*، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الأرقم للطباعة والنشر، ١٩٩٣)، ص١٥، ص٧٥.

(٧٢) ينظر: السيد جعفر السيد، *مفهوم الإعجاز وخصائص أسلوبه*، الطبعة الأولى، (حلب: دار المعارف، ٢٠٠٣)، ص١٨.

(٧٣) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٢.

(٧٤) ابن منظور، *لسان العرب*، ج٢، ص٥٧.

(٧٥) الأياطل: مفردها أيطل، وهو الخاصرة. ينظر: ابن منظور، *لسان العرب*، ج١، ص١٦٠. الهياطل: مفردها هيطل، وهو الذئب. ينظر: ابن منظور، *لسان العرب*، ج١٥، ص١٠٣.

آخر قبله، وكذلك (الأياطل والهياطل)، فنطقهما طويل لتوسط المد فيهما، وهذا المد يساعد في ترسيخ الدلالات والإيحاءات بشكل فاعل؛ بسبب طول سماعه، ويحقق صوتًا متناغمًا منسجمًا مع هذه الدلالات.

أما الجناس، فقد أكثر أبو الصلت من استعمال الناقص منه، ومثّل "حركة تحويلية تنطلق من اللفظ نحو المعنى"[٧٦]، وتؤدي إلى تلوين صوتي يستسيغه السامع؛ لأنه متشابه إلى حد كبير، ولا يختلف إلا في حرف واحد أو حركة أو غير ذلك، ومن أمثلته في الرسالة قول كاتبها عن اختياره مصر للسفر: "فكانت مصر مما وقع عليه اختياري، وصدقت حسن ظني قبل اختباري"[٧٧]، فقد جانس جناسًا ناقصًا بين لفظتي الفاصلة (اختياري واختباري)، وذلك باختلاف الحرف الرابع فيهما، وهما مصدران يعبران عن ثبات المعنى وارتباطه بالدلالة المقصودة، فطرف الجناس الأول (اختياري) يدل على أن الكاتب كان مُخيرًا بين مصر وغيرها من البلدان، إلا أنه اختارها بمحض إرادته.

أما الطرف الثاني، فيدل على تقييم مصر وسفره إليها، إلا أن العبارة توحي أنه لم يقيّم ذلك تقييمًا مدروسًا على الحقيقة، وإنما غلب حسن ظنه على اختباره، ومن الناحية الصوتية، فإن الجناس حقق تماثلًا صوتيًّا قائمًا على تشابه نطق الكلمتين، من ناحية الحركات والسكنات والمد، وإن اختلف أحد حروفهما، فإن الصوت جاء متشابهًا، نتيجة تشابه الحروف التي سبقتهما ولحقتهما.

وفي سياق حديثه عن خروجه من السجن ووصوله إلى (ابن باديس) يقول: "إلا أن الله جلت آلاؤه... تدارك برحمته فأزال تلك المحنة بالمنحة"[٧٨]، إذ جانس بين (المحنة والمنحة) جناسًا ناقصًا بتغيير ترتيب الحروف (الحاء والنون)، وجاءت اللفظتان معبرتان عن المعنى، من خلال التقابل بينهما، فالمحنة هي وجوده في مصر وسجنها، والمنحة هي وصوله إلى (ابن باديس)، وعليه فقد تعاضد الجناس الناقص مع الطباق؛ لتحقيق الدلالة المقصودة المتعلقة بتغير أحوال الكاتب وتبدلها من الحزن إلى السعادة. واللفظتان لهما صوت قوي منبثق من أصوات حروفهما، فهي واضحة يسمعها كل إنسان، مما يؤدي إلى فهمها وإدراك إيحاءاتها.

واستعمل الكاتب الطباق المباشر في مواضع عدّة، ليعبر من خلاله عن تقلبات حياته، وتفاصيل الأشياء والأحداث التي يصفها، ويُخبر عنها، ففي وصفه حالته وقد وصل إلى (ابن باديس) يقول: "فكنتُ فيما مضيت عليه وآلت حالي إليه، من إشراقها بعد الأفول، وإيراقها بعد الذبول"[٧٩]، فقد انقلبت أحواله وتبدلت من التعاسة والظلام إلى الفرح والنور، وللتعبير عن هذا طابق بين (إشراق وأفول)، وبين (إيراق وذبول)، فقد انتقل من حال الظلمة والأفول في مصر إلى حال الإشراق، وشبه نفسه بالشجرة التي ذبلت أوراقها في مصر، ثم أورقت من جديد في كنف (ابن باديس).

ويصف أهل مصر وجهلهم في السياسة، ويجعلهم قد "أربَوا فيها على كلّ مَنْ تقدم وتأخر"[٨٠]، إذ تفوقوا في جهلهم على السابقين واللاحقين، وجاء هذا من خلال لفظتي الطباق (تقدم وتأخر)، وهما لفظتان قويتان في النطق، واضحتان على السمع، ولهما صوت رنان يرسخ سمعهما ومعناهما.

---

(٧٦) ينظر: عزة أحمد علي، "التماسك النصي في نونية ابن زيدون: دراسة بلاغية في ضوء علم البديع"، *مجلة الآداب والعلوم الإنسانية*، ٩٠، ١ (٢٠٢٠): ٢١٣.

(٧٧) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٢.

(٧٨) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٣.

(٧٩) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص١٣.

(٨٠) أبو الصلت الأندلسي، "الرسالة المصرية"، *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، ج١، ص٣١.

لقد ساعد الطباق في تعميق تجربة الكاتب، وتفصيلها وبسطها أمام المتلقي، وكشف الصراع في نفسه المتأرجحة بين مشاعر الحزن والفرح، ومشاعر كرهه مصر وأهلها، وحبه ابن باديس وحضرته وغير ذلك؛ مما جعل الطباق عنصرًا بنائيًّا فاعلًا في المعاني، وتجليتها في صور تعبيرية تكشف المعنى المراد، وتخدم الأفكار المحورية.

خاتمة

بحثت الدراسة في لغة نص قديم لكاتب أندلسي، هو الرسالة المصريَّة لأبي الصلت، ودرست وظيفتها التبليغيَّة القائمة على الإخبار عن معلومات عن مصر وأهلها في زمن الكاتب، وأظهرت أبرز جماليَّات تلك اللغة، وخلصت إلى النتائج الآتية:

أولًا- انطوت لغة الرسالة على تقديم مجموعة من الأخبار والمعلومات عن بلاد مصر وسكانها ومجتمعها في زمن كاتبها، ومن أبرز تلك الأخبار ما كان متعلقًا بالجغرافيا والسكان وأعراقهم وصفاتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم، وأبرز آثار مصر وملامح حضارتها، وأهم أدبائها وظرفائها.

ثانيًا- قدمت الرسالة أخبارًا ومعلومات وبسطتها أمام المتلقي، وهو بدوره يتعرف إليها إن لم يكن على علم بها، أو تتعزز لديه إن كان عالمًا بها من قبلُ، وقد يقتنع ببعضها أو كلها أو لا يقتنع، وخاصة أن كاتب الرسالة قد بالغ في بعض أوصافه لأهل مصر وذم كثيرًا منهم، وعليه فإن الأمر يعود للمتلقي في تأكيدها أو نفيها.

ثالثًا- تعدّ الرسالة وثيقة تاريخية مهمة، يمكن أن يفيد منها كل باحث في تاريخ مصر وجغرافيتها أو مذاهب أهلها وأدبهم أو غير ذلك؛ لأنها قدمت معارف كثيرة عن مصر وأهلها ومجتمعها في زمن كاتبها.

رابعًا- حملت لغة الرسالة جماليَّات عدّة، كان أبرزها الوصف والتناص وفنون البديع، وساعدت هذه الجماليَّات في تمثيل المعاني وتحقيق وظيفة التبليغ؛ لأنها لم تكن لتحقيق الزينة والشاعرية فحسب، وإنما استُعملت لغاية بسط المعلومات، وجعل المتلقي يتأثر فيها، من خلال لغة شاعرية فنية.

المصادر والمراجع

أولًا- المصادر

ابن الأبار القضاعي، محمد بن عبد الله. *التكملة لكتاب الصلة*، تح. بشار معروف، الطبعة الأولى، ٤ أجزاء، تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١١.

الحموي، ياقوت. *معجم الأدباء*، تح. إحسان عباس، الطبعة الأولى، ٦ أجزاء، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣.

الحموي، ياقوت. *معجم البلدان*، تح. فريد الجندي، ٧ أجزاء، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

الخفاجي، ابن سنان. *سر الفصاحة*، تح. علي فودة، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٣٢.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد. *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تح. إحسان عباس، ٨ أجزاء، بيروت: دار صادر، ١٩٧٨.

صريع الغواني، مسلم بن الوليد. *شرح ديوان صريع الغواني*، تح. سامي الدهان، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥.

أبو الصلت الأندلسي، أمية بن عبد العزيز. "الرسالة المصريَّة." *ضمن كتاب نوادر المخطوطات*، تح. عبد السلام هارون، ١١-٥٦. الطبعة الثانية، جزآن، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٣.

المتنبي، أحمد بن الحسين. *ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري*، تح. مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، الطبعة الثانية، ٤ أجزاء، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

ابن المعتز، عبدالله. *الديوان*، تح. كرم البستاني، بيروت: دار صادر، د.ت.

المقريزي، تقي الدين. *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية*، تح. محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، الطبعة الأولى، جزآن، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٨.

ابن منظور، جمال الدين بن مكرم. *لسان العرب*، اعتنى به. أمين عبدالوهاب، ومحمد العبيدي، الطبعة الثالثة، ١٨ جزءًا، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩.

ثانيًا- المراجع

بركة، فاطمة. *النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون*. الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣.

جاكبسون، رومان. "التواصل اللغوي ووظائف اللغة." *ضمن الألسنية (علم اللغة الحديث): قراءات تمهيدية*، ميشال زكريا، ٨٥-١٤٥. الطبعة الثانية، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٥.

الحربي، نوره. "الوظيفة التواصلية الإبلاغية للغة والتعدد الوظيفي." *مجلة القراءة والمعرفة*، ٢٢٩، ٢٠ (نوفمبر ٢٠٢٠): ٦٩-٩٤.

دي سوسير، فرديناند. *محاضرات في الألسنية العامة*، تر. يوسف غازي، ومجيد النصر، الطبعة الأولى، بيروت: دار نعمان للثقافة، ١٩٨٤.

سلطان، منير. *التضمين والتناص: وصف رسالة الغفران للعالم الآخر نموذجًا*، الإسكندرية: منشأة المعارف، ٢٠٠٤.

السيد، السيد جعفر. *مفهوم الإعجاز وخصائص أسلوبه*، الطبعة الأولى، حلب: دار المعارف، ٢٠٠٣.

شاوي، أسماء. "وظائف الوصف في المقامات اللزومية للسرقسطي الأندلسي." *مجلة مقاربات*، ١، ٤ (٢٠١٦): ٢٦٦-٢٧٣.

الشهري، عبد الهادي. *استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية*، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤.

طبق، عبد الجواد. *دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية*، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الأرقم للطباعة والنشر، ١٩٩٣.

العبد القادر، بدر. "المشهد اللغوي الأكاديمي: دراسة وظيفية لغوية." *مجلة كلية دار العلوم*، ١٣٨، ٣٩ (يناير وفبراير ٢٠٢٢): ٤٥٣-٥١٩.

علي، عزة أحمد. "التماسك النصي في نونية ابن زيدون: دراسة بلاغية في ضوء علم البديع." *مجلة الآداب والعلوم الإنسانية*، ٩٠، ١ (٢٠٢٠)، ١٨٩-٢٢٦.

قاسم، سيزا. *بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ*، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامة لكتاب القاهرة، ١٩٧٨.

مباركي، جمال. *التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر*، الجزائر: دار هومة للنشر، ٢٠٠٣.

المتوكل، أحمد. *اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري*، الطبعة الأولى، الرباط: منشورات عكاظ، ١٩٨٩.